

الجمعية المصرية للدراسات التاريخية

SOCIÉTÉ ÉGYPTIENNE DES ÉTUDES HISTORIQUES

المجلد،
التاريخية
المصرية

القاهرة ١٩٦٩

المجلد الخامس عشر

المطبعة العالمية ١٦، ١٧ شارع سيدي القاهرة

المحتويات

صفحة

البحوث :

١ — هجوم القبارصة على الإسكندرية — ٥٧٦٧ (= ١٣٦٥ م)

من نصوص جديدة للنويرى

دكتور حسن حبشى

١

٢ — الرملة ورباطاتها السبعة فى القرن الرابع الهجرى

قبيل الحروب الصليبية — نظام اذفاع دائرى

٣٧

دكتور محمد عبد الهادى شعيرة

٣ — القلاع فى الحروب الصليبية

٤٩

دكتور عبد الرحمن زكى

٤ — الغناء والموسيقى والمجالس الاجتماعية فى العصر العباسى

٨٩

دكتورة مليحة رحمة الله

٥ — آل محمد ، بيت الزعامة العشائرية العراقية فى القرن التاسع عشر

١٠٩

دكتور عبد العزيز سليمان نوار

٦ — فاشودة الصغيرة (١٨٩٦ - ١٩٠٦)

١٦٣

دكتور يونان لبيب رزق

نصوص ومخطوطات :

— مناهل الصفا فى أخبار دولة الملوك الشرفا : للوزير عبد العزيز الفتشالى

٢٣٥

الأستاذ عبد الكريم كريم

- ١ - إمارة دمشق ١٧٢٣ - ١٧٨٣
 للدكتور عبد الكريم رافق
 ١٦٧
- ٢ - الإصلاح في الإمبراطورية العثمانية ١٨٥٦ - ١٨٧٦
 رودريك دافيدسون
 ٢٧١
- ٣ - علاقات مصر بتركيا في عهد الخديوى إسماعيل ١٨١٣ - ١٨٧٩
 للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
 ٢٨٢
- ٤ - مصر والسألة المصرية في ١٨٧٦ - ١٨٨٢
 للدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى
 ٢٨٧

Was Pope Innocent III, An Accomplice in the Diversion of
 the fourth Crusade (1204)

Dr. Ishak T. Ebeid

البحوث

هجوم القبارصة على الاسكندرية

(٥٧٦٧ = ١٣٦٥ م)

من نصوص جديدة للنويرى

للكنوز مسن ميسى

أستاذ التاريخ المساعد بكلية الآداب . جامعة عين شمس

تعرضت الاسكندرية في سنة ٥٧٦٧ (= ١٣٦٥ م) لغزو صليبي كان بمثابة الهزة العنيفة للحكومة المملوكية مما حملها على الاهتمام بها بجملها - عن حق - خط الدفاع الأول عن البلاد وإعطائها مزيداً من الصلاحيات الإدارية تمثلت في أن أصبحت لأول مرة نيابةً بعد أن كانت ولاية ، وأصبح نائبها يلقب « بملك الأمراء » . ومع ضخامة هذا الحادث الذى سبب معاصروه بالكثافة العظمى^(١) من حيث الاستعدادات الحربية التى اتخذت من أجله على الصعيد الأوروبى ومن حيث الخسائر الضخمة التى نزلت بالاسكندرية وأهلها إلا أنه لم يجد من ينفى بالكتابة عنه - فى إفاضة وإسهاب - من المؤرخين المسلمين سوى واحد فقط هو محمد بن قاسم بن محمد النويرى الملقب بالاسكندرى من رجال القرن الثامن الهجرى (= الرابع عشر الميلادى) ، فقد وضع كتابه المسمى « بالإلام بما جرت به الأحكام القضائية فى واقعة الاسكندرية ، فى سنة سبع وستين وسبعمائة وعودتها إلى حالتها المرضية » ؛ ومن ثم فهو المصدر العربى الوحيد الذى تفرد بذكر هجوم القبارصة على هذا الثغر ، هذا بالإضافة إلى أن مؤلفه كان شاهد عيان لهذا الحادث الكبير الذى استعد له الغرب استعداداً كبيراً ظل معظمه طى الكتمان - حتى عن بعض الذين شاركوا فيه - وكان له صدى هائل وتأتج خطيرة ما بين محلية وخارجية .

وفد تعددت الإشارات — نسبياً — في كثير من المصادر الغربية والوثائق إلى الاستعدادات والاتصالات السياسية التي أجراها ملك قبرص بطرس اللوزينيانى صاحب مشروع الغزو ومنفذه ، كلاً أن هناك ملحمة شعرية في الأدب الأوربي عنوانها La Prise de Alexandria .

وقد تناول « الإلام » الوقعة بالتفصيل ، لكنها مع هذا التفصيل تكاد تضيع بين الاستطرادات اللمة التي تغطي في كثير من الأحيان على موضوع الكتاب ، ويشير أحد معاصريه^(١) إلى ذلك فيقول « إنما أطاله باستطراده من شيء إلى شيء ، فإنه بدأ بفتح الاسكندرية فأطال في ذلك وساق أخبارها ، فكان خبر الوقعة في جانب ما ذكر كالشامة » ، ومع ما تضمنته هذه الاستطرادات — في كثير من الأحيان — من معلومات تاريخية ونكات أدبية — إلا أنها لا ترتبط بالهجوم ، ومن ثم فهي اعتراضات مطولة تجور على التأن وتغطي على أحداث المعركة حتى ليكاد المرء ينسى الوقعة وهو يطالع الإلام ، ولقد شعر النويرى بذلك فكان يحتم كل استطراد بقوله « نعود » أو « نعود لما كنا فيه » وأشباههما .

ولقد جرى الهجوم على الاسكندرية يوم ٢٣ محرم ٥٧٦٧ هـ (= ١٠ أكتوبر ١٣٦٥م) في السنة الثالثة من حكم السلطان شعبان بن حسين ، وإذا كان هجوم القبارصة مفاجأة مصر المملوكية فإنه لم يكن كذلك بالنسبة لبعض القوى الأوربية وللبابوية ذاتها ، بل الثابت من استقرار الأحداث التاريخية أنه قد مهدت له دعايات معينة كتلك التي تصاحب كل تجريدة صليبية ، وسبقته اتصالات دبلوماسية على مستويات عالية وتحركات عدوانية على بعض مدن آسيا الصغرى ، حتى إذا نجحت كل واحدة في ميدانها كان الهجوم على الاسكندرية ذروة الجهد ، رغم أن هذا الهجوم لم يستمر أكثر من ثمانية أيام ، ولكن كانت له آثاره المدمرة في التخريب وتتل العدد الكبير من أهلها^(٢) ووقوع البعض في الأسر .

لم يكن سقوط عكا في أيدي المصريين والقضاء على القوة الصليبية في الشام

(١) ابن حجر : شرحه .

(٢) رجعت في هذه التواريخ العربية للجداول التي وضعها اللواء محمد مختار في كتابه : التوفيقات الإلهامية ، « طبعة بولاق ١٣١١ هـ .

(٣) أبو المحاسن ، النجوم الزاهرة « طبعة القاهرة ١٩٢٩ .

خاتمة للصراع الذي بدأه البابا إيزابان الثاني عام ١٠٩٥ في خطبته^(١) في كليرمونت بفرنسا ، بل راح يظهر في مسوح شتى لم تكن الحرب إلا إحدى مظاهرها ، ولقد امتاز هذا القرن في الغرب بظهور اتجاه جديد إهتم — أكثر ما إهتم — بإنشاء المؤسسات الدينية الحربية التي جعلت — ظاهرياً — غرضها استرداد بيت المقدس من أيدي المسلمين^(٢) ، ولقد وجدت القوى اللاتينية ملاذها في قبرص التي قام بها البيت اللوزيناني ، وأصبح كثير من رجال القصر وهذا البيت يلقبون بمارشالات بيت المقدس وصنجالاتها^(٣) ، وليس لهذه الألقاب من دلالة إلا الارتباط الشديد بين حكم جزيرة قبرص وبين فكرة استرداد الأحرام المسيحية المقدسة ، ومن ثم لم يكن بطرس اللوزيناني بدءاً في هذا المجال ، ولكنه كان أول وآخر رائد من حكامها وضع الفكرة الصليبية موضع التنفيذ ؛ والواقع أن توليه العرش سنة ١٣٥٩ م كان إشارة الانطلاق في احتضان هذه الجزيرة الفعلية للدوان الغربي على الشرق الإسلامي ، كما يعتبر عهده فاشحة التوسع الحربي ، وقد غذى فيه هذه الروح نشأة أحاطتها الأساطير الدينية وقوتها الخيالات والرؤى والأحلام^(٤) ، يضاف إلى هذا أن اتصالاته بفيليب دي ميزير^(٥) كان لها أثر قوي في بث الكراهية في نفسه ضد الجماعات الإسلامية

(١) R. Pernoud : The Crusades (Lond., 1962), pp. 23-26.

(٢) كان من بين هذه التنظيمات الدينية الحربية جماعة "Escon d'or" التي أنشأها لويس البربوني ، ومنظمة Annonciades على يد صاحب سانوى ، ومنظمة « النجمة » في فرنسا
نظر في ذلك Leopold Pannier : La noble maison de Saint Ouen, p. 90; Marquis de Loray : Jean de Vienne, Amiral de France, p. 36.

(٣) نستدل على هذا من وثيقة أوردها Mas Latrie : Hist. de Chypre II, p. 178. جاءت فيها هذه العبارة "sensecalus regni Jeresolimitani".

(٤) ولقد تجسست فيما بعد في إنشائه جماعة لإخوان السيف التي سماها البعض « بفرسان ملوك قبرص » ، وانخرط فيها كثير من الجنسيات الأوربية ، وكان هدفها في بداية الأمر استخلاص بيت المقدس من أيدي المسلمين ، لكنها انتهت بقصر اهتمامها على الدفاع عن قبرص ذاتها في وقت لم تجد قبرص فيه من يذود عنها أنظر Machaut : La Prise d'Alexandrie, (Genève, 1877), II. 369 et seq; Jorga : Philippe de Mézières, (Paris, 1896), p. 83.

(٥) ولد فيليب دي ميزير في إقليم بيكاردي بفرنسا عام ١٣٢٦ وتعلم في أميين ، ثم اتصل بـ بلاط أندريه ملك نابلي ، وظل به حتى سنة ١٣٤٦ رحل بعدها إلى كثير من البلاد ومن ثم

نتيجة اتصاله المباشر ببطرس توماس بطرك القسطنطينية . لذلك كان اهتمام بطرس الأول
متركزاً على ضرب المعادل الإسلامية أنى وجدت ، وساعدته الظروف في أرمينيا على
وجه الخصوص في أن يجد لقدمه موضعاً بها ، حيث بعث إليه ملكها ليون الخامس
يستنجد به في يناير ١٣٦٠^(١) ضد الخطرين العثماني والمملوكي ، حتى لقد « جعل مدينة
جورهيجوس^(٢) وأهلها في حمايته » فوافق ذلك هوى في نفس الملك القبرصي إذ « كان
متاهماً على تلك أرض في تركيا^(٣) ، ومن ثم أصبحت لبيت لوزنيان ركنة حرية
تتأخم القوى الإسلامية التي انزعج بعض أمرائها فسكونوا من بينهم تحالفاً للمقاومة
وإن لم يتمخض هذا التحالف عن نتائج عملية حاسمة ، ولكنه دفع بالملك القبرصي
لتسكين القوى الغريبة — حتى المتصارعة منها فيما بينها — فبادرت إلى إمداده
بالسفن الحربية والرجال والعتاد ، وجعل لنفسه القيادة العامة وهاجم « أنطاكية »^(٤)
ونصب عليها فارساً مولداً اسمه « جيمس دي نورس » ثم أعلن متابعتها للزحف
على « الملايا » مما انزعج له حاكمها فما لبث أن أرسل رسلاً من قبله إلى الملك بطرس
« يلتمس منه مودته ، وتعهد له بدفع قدر معين من المال كل سنة ، وأن يرفع راياته

== بينها بعض بلاد الشرق ، وحج إلى بيت المقدس حيث انبهت لديه فكرة تكوين جيش خلاص
نصراني لاسترداد الأهرام المقدسة ، ثم عاد فر يقبرس وتعرف إلى الملك بطرس الذي ما كاد
يعتلى العرش عام ١٣٥٩ حتى اتخذه مستشاراً له وصحبه في زياراته للملك وأمرأه أوروبا ، قصد
انعاونه في تنفيذ مشروعه الصليبي ، أنظر Jorga : op. cit., Ch. VII ، هذا وقد نشر
المرحوم الدكتور عبد الحميد عدى مشروع ميزير الصليبي في مجلة كلية الآداب جامعة الاسكندرية .

(١) فيما يتعلق بالتاريخ راجع Dawkins (in) Makhairas, Recital concerning the
Sweet Land of Cyprus, (Oxford, 1932), Vol. II, 104, note I.

(٢) Machaut : op. cit., 20
فراجع I Mas-Latrie : Hist. de Chypre II, 75 note I حيث ذكرت في النص اللاتيني
الذي أورده باسم Culcum .

(٣) Makhairas : op. cit., I, 101.

(٤) كانت أنطاكية والملايا من أهم اللواتي في هذه الناحية الشرقية من حوض البحر الأبيض
المتوسط ، وقد زارها الرحالة المسلم ابن بطوطة قبل ثلاثين سنة من هذا الفوز القبرصي وأسهب
في وصفها ، كما أشار ياقوت : معجم البلدان ٣٨٨/١ إلى أنطاكية فذكر في شأنها أنها
« حصن واسع الرستاق كثير الأهل » وعنه أخذ هذا الوصف ابن عبد الحق البغدادي :
مرصد الاطلاع ١٢٥/١ .

وأعلامه في مدينته» (١) فسر الملك من هذا الاستسلام الذى لم ترق فيه نقطة دم ، وكان ذلك في الثامن من سبتمبر ١٣٦١ ، وكان هذا الاستسلام بداية انقراط (٢) عقد التحالف الإسلامى ضد الملك اللوزينانى .

بهذه الوسيلة وبهذه النتائج التى تخففت عنها هذه الحركة من جانب بطرس أدرك الأخير مواضع الضعف في الجبهة الشرقية الإسلامية ، كما أن هذه الانتصارات التى اكتسبها — وإن لم تكن له يد في بعضها — دفعت لتوجيه اهتمامه نحو ضرب المواقع الإسلامية الكبرى بغية استخلاص بيت المقدس واحتلال بعض أراضيها ، والسيطرة على معاير التجارة الشرقية ومسالكها .

إلا أن الأمور لم تمض كما يشتهى ، فلما لبث أن تحركت بعض هذه القوى الإسلامية لرفع النير القبرصى ، وذهبت إلى أبعد من ذلك حيث أخذت تعد العدة لمهاجمة قبرص ذاتها في الوقت الذى كان ملكها فيه في الغرب يستعديه لمهاجمة المسلمين ، إلا أن القوة الإسلامية البحرية المغيرة اضطرت للارتداد وفر قائدها إلى طرابلس الشام حيث حماه أميرها منكلى بغا الشمسى الذى يسميه ماخيراس باسم « ملك بخنا » (٣) .

ترى هل كانت في ذهن بطرس فكرة واضحة منذ البداية عن الهدف النهائى من زعته الصليبية ؟ أعنى هل كان يفكر في مهاجمة مصر وثغرها الإسكندرية قبل نزول قواته على بعض بلاد آسيا الصغرى مابين أرمينية وإسلامية ؟

(١) Makhairas : op. cit., I, 124.

(٢) تفسير هذا الاستسلام عند :

Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 328

هو خوف هذه الإمارات من ضياع استقلالها على يد قرمان ، أنظر
E.I. art Kirman; Gibbons : pp. 165-7, 187-90, 289-90.

Cf. Makhairas : op. cit. I, 159; II, 159, note 2 (٣)

وقد مات منكلى بغا الشمسى هذا سنة ٧٧٤ ، أنظر ابن حجر : أنباء الغمر ، وفيات ٧٧٤ هـ أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١/ ١٢٤-١٢٥ حيث ذكر ولايته لطرابلس الشام ، كذلك ابن العماد الحنبلى : شذرات الذهب ٦/ ٢٣٦-٢٣٧ ، أما الدرر الكامنة ١/ ٩٩٨ فلم يورد خبر ولايته لها في ترجمته هناك .

الواقع أنه ليس بين أيدينا ما يشير صراحة أو تلميحاً إلى مثل هذه الفكرة قبل استنجد ليو الخامس به ، ولعله رأى في ضعف الإمارات الإسلامية وتنازعها فيما بينها وعدم وجود تحالف يجمعها ضد المعتدى ماحرك فيه هذه النزعة الدينية للتفكير في مواجهة مصر مواجهة حربية .

يؤيد هذا الرأي الذى تقترحه أن الملك بطرس لم يكد يفرغ من آسيا الصغرى حتى يبادر للشخص إلى أوربة يمرض « حرباً صليبية » لم يحدد لها هدفاً صريحاً ، ولسنا نجد في الوثائق اللاتينية التى جمعها « ماس لاترى »^(١) الخاصة بالملك بطرس فى سنة ١٣٦٤ ما يشير إلى « الإسكندرية » ، بل إن التصريح بوجهة هذه الحملة قد بقى سرّاً مكتوماً حتى عمن اشتركوا فيها - ومن بينهم البنادقة والجماعات الإيطالية على وجه الخصوص ، ولم يعرفوا حقيقة تلك الوجهة إلا يوم قاربوها ، بيد أنه ليس معنى ذلك أن تحديد وجهة الحملة لم يتم إلا بعد خروجها من قبرص وكشف الخبر عن طيتها لرجاله ، ولكن الأرجح أنه اندفع إلى الغرب بعد خضوع الملائيا وأنطاليا محاولاً اغتنام هذه الفرصة لتحريكه عدوانياً وتأليه على الشرق الإسلامى .

* * *

هنا بدأت الخطوة الثانية فى سلسلة التحركات التمهيدية التى أدت فى النهاية إلى مهاجمة الإسكندرية وهى الاتصالات الشخصية الدبلوماسية التى قام بها - منذ أكتوبر ١٣٦٢ - الملك بطرس بالقوى المسيحية الغربية وهى :

١ - البابوية .

٢ - البندقية وجنوة .

٣ - الممالك الأوربية (وعلى رأسها إنجلترا وفرنسا) .

٤ - جماعة الاسبتارية .

ولما كان بطرس هو وحده الذى قام بهذه الاتصالات فلم يدخل فى الحسبان توزيع تلك الاتصالات من حيث الأهمية الحربية بل إن الوضع الجغرافى هو الذى

كان على عليه الاتصال بواحدة منها قبل الأخرى ، وقد استغرقت تلك الاتصالات منه ثلاث سنوات امتدت من ١٤ أكتوبر ١٣٦٢ (١) .

وكان أول من اتصل به جماعة الفرسان الاستبترية في رودس وكانوا بقيادة رئيسهم الأخ الأكبر « روجردى بان » وكان ذلك على يد جماعة في أنطاكية كتب إليهم الملك رسالة يطلب إليهم فيها الشخوص على جناح السرعة إلى رودس ، فكان ما أراد ، وما يكاد هؤلاء القواد يصلون إليه حتى بادروا بالسفر إلى البلاط البابوي في « أفينيون » حيث كان البابا إربان الخامس الذى أصلح ما بين الملك وبين هيج اللوزينانى تحقيقاً لشق من سياسته القائمة على تقوية البابوية في إيطاليا ، وإقرار السلام بين الجماعات الغربية وإحياء الحركة الصليبية (٢) مما كان له صدًى في قول أحدهم حين اعتلائه العرش البابوي « لقد أصبح اليوم لنا بابا » *Modo habemus Papam* (٣) ، ولقى الملك بطرس استجابة طيبة من البابا الذى أراد أن يكون له ما كان لسميه إربان الثانى منذ أكثر من قرنين ونصف قرن من الزمان .

كذلك وصل بطرس في ديسمبر ١٣٦٢ إلى البندقية إدراكاً منه لما تستطيع أداءه هذه الجمهورية لصالح الفكرة الصليبية ومساعدتها مادياً ، ورحب به دوجها « لورانت شلى » الذى استمع إلى تصويره لحالة المسيحيين في الشرق ، كما لم تفته الإشارة إلى خطر ازدياد القوة الإسلامية وتهديدها للصالح الغربية في ميدانى التجارة والدين معاً على السواء ، وقد وعده الدوج بقيام دوقيته بمساعدته بالسفن وبعض الرجال ، وكان هذا غاية ما يرجوه بطرس من نجاح لمساهمة لدى جمهورية البندقية التى تضع مصالحها المادية فوق الصالح المسيحى والذى يرى أهلها فى أنفسهم « بنادقة أولانم مسيحيين بعدئذ » ، والذى دعتها رعاية هذا الصالح الشخصى إلى الإصرار على أن تكون الاتفاقية بين الطرفين سرّاً حتى لا تبلغ مسامع قوى تمحصر البندقية

(١) تحديد هذا التاريخ بناء على ماورد فى Mas-Latrie : op. cit., II, p.

239, note 1, d'après Strambaldi حيث بين صراحة خطأ خروج الملك قبل هذا الوقت .

(٢) عاشور : الحركة الصليبية ، ج ٢ .

Duchesne : Hist. de Cardinaux français, I, p. 406.

(٣)

على مراعاتها حفظاً منها على امتيازاتها التجارية والاستيطانية والفضائية فيها ، لكن هل رسمت وجهة الحملة الزرع قيامها تحت قيادة الملك القبرصى ؟ وهل نص الحديث بينهما على « الإسكندرية » ؟ الأرجح أنه اكتفى بأن تكون التجربة « صليبية » ، ولعل الجانب القبرصى لم يبلغه مثل هذا الإتفاق ، بدليل ما يسوقه النورى (١) من أنه حين هاجم القبارصة عمد جنفرا إلى التوصل بالبندقية واصطناعهم في حراسة البضائع التي خيف عليها فأرسلها للداخل محبتهم حراساً عليها ، مما يدل على أنه لم يكن بخامره شك من ناحية البندقية وقناصلها .

* * *

تابع بطرس سيره بعدئذ نحو لمبارديا وإيطاليا الجنوبية حيث صادف ترحيباً به وبفكرته من جميع من اتصل بهم : أمراء وأدواقاً وحكاماً ، ووصلوه بكثير من الهدايا والحيول ، ولم يعدم جماعة من الفرسان المتدينين الذين انضموا إليه ومحبوه في تجواله حتى بلغ جنوه حيث رحب به دوجها « سيمون بوكانيجرا » الذي ما لبث أن قتله أشرف الإمارة بالسلم ، فكان هذا الحادث باعثاً لليأس في قلب بطرس الأول ، لكنه عاد يطرق أبواب جنوة حين أراد أهلها تجديد الامتيازات التي منحهم إياها من قبل هنرى الأول منذ أكثر من قرن من الزمان ثم العودة إلى مثل هذه المحاولة في العشرينات من القرن الرابع عشر (٢) .

* * *

اتصل بطرس بفرنسا وملكها جان الثانى المعروف بنزعته الدينية القوية حتى كان أحد اثنين تناولا الصليب لهذه الحرب من يد البابا إربان الخامس ، وليس من شك في أن بطرس كان يحدوه الأمل في أن تنضم لمشروعه مثل هذه الشخصية القوية النفوذ في بلدها ، الوثيقة الصداقة برجال الدين ، المؤاخية في السلاح لكثيرين من أبرز الفرسان المصاميد ، يضاف إلى هذا أنه كان يتحرق شوقاً لمحاربة المسلمين في الأندلس ، إرثاً ورثه عن أبيه وعهداً قطعه على نفسه ، يضاف الى هذا ما ترمى إلى سمع الملك القبرصى من إعجاب ملك فرنسا به لما جازه من نصر في الملايا .

(١) النورى : الأعلام ، ص ٥٢٤ .

التقى بطرس بجان الثانى فى بلاط أفنيون حيث رحب الملك الفرنسى به ودعاه للجلوس الى جواره على المائدة فأبى بطرس احتراماً لمساكنة ملك فرنسا وقال له: «أيها السيد العظيم، لا يحق لى أن أجلس إلى جوارك فأنت أعظم أمراء المسيحية»^(١)، ولعل هذا ما يفسر إشارة النويرى عن بطرس فى قوله عنه «إنه كان أذل ملوك النصرانية» وهو قول رده عنه مؤرخ حديث فى القرن العشرين صور مبلغ احتقار الغرب له وازدراءه بشأنه^(٢).

على أن الغريب هنا أن البابا أراد أن يجعل من حملة لوزنيان حملة بابوية تصرف فيها كيف شاءت، ومن ثم وكل قيادتها إلى ملك فرنسا دون بطرس، مما يؤيد رأى القائلين بتفاهة شأن الملك القبرصى، كما جعل «تاليران بريجورد» نائبه الرسول فىها، وطبيعى أن يرحب الملك الفرنسى بهذه الفرصة، لخصص جميع الأموال التى كانت قد جمعت من قبل لتخليص الأماكن المقدسة وفقاً على هذه الحملة، بالإضافة إلى الهبات والمبالغ التى وعد بها من جيبه الخاص، وكذلك نصف دخول كنائس فرنسا، على أن يوكل التصرف فى هذه الأموال إلى أربعة من كبار الأساقفة يختار الملك الفرنسى منهم اثنين ويختار البابا الاثنين الآخرين.

وقام البابا من جهته بتنفيذ الرسائل إلى ملوك وأمراء النصرانية فى الغرب يحثهم على المساهمة فى هذه التجريدة الصليبية التى يظهر جلياً أنها كانت متجهة ضد «الترك»، ولم تجر فيها الإشارة إلى مصر، وحدد أول مارس ١٣٦٥ ليكون موعداً لنهوضها. ويلاحظ أن اسم ملك قبرص لم يرد قط فيمن دخلوا فى نطاق أسماء زعماء هذه الحملة، فهل كان ذلك عدم اكتراث بشأنه؟ وهل كان ذلك يرضيه وهو الذى تكبد ما تكبد فى سبيل الحصول على نجيدات ومساعدات من الغرب؟

على أنه يظهر أن هناك ثم تدخلا من جانب فيليب دى مزيير لدى البابا لتأييد موقف بطرس الأول الذى ما لبث أن رحل يطلب مساعدة الأمراء الأوربيين المختلفين.

Chroniques de Pays-Bas et de France, (ed. de Smet), II, p. 201. (١)

Lorga : Philippe de Mezières, p. 283, l. 10.

(٢)

ويخيل إلينا أنه رحل وفي نفسه شيء من الألم لإيكال هذه الحملة لسواء دونه ،
وإلا فقد كان يكفيه كتابة البابا رسائله إلى مختلف ملوك وأمراء أوربة .

ذهب بطرس بعد مغادرته بلاط أفنيرون إلى ألمانيا على حد قول فروازار^(١)
حيث مضى الى براغ لمقابلة الأمبراطور ثم إلى بولندا وعاد منها إلى فرنسا ، ويقال
إن البابا أرسل خطاباً إلى دوج جنوة يخبره فيه أنه أرسل الملك بطرس بأمره إلى
بعض ممالك الغرب المسيحية لاسيما في إقليم ألمانيا^(٢) ، وكان ذلك في صيف ١٣٦٤م
(= ٧٦٦ هـ) ، ويظهر أن الغموض يكتنف رحلات بطرس في هذه الفترة ، وهو
غموض لا يفسره إلا أنه لم يجد تقديراً صحيحاً — في اعتقاده — لمكانته عند البابوية
مثل تقديرها لفكرة الحملة الصليبية في حد ذاتها ، ويتضح أن بطرس أصبح يعمل
لحسابه الخاص ملتصقاً المرتقة والمطوعة والغامرين ، وذهب أيضاً إلى إنجلترا يوم ٦
نوفمبر حيث قابل جماعة من الفرسان الانجليز والفرنسيين ورحبوا به وأزلوه منزلاً
خاصاً به ، واستقبله ملك إنجلترا إدوارد الثالث استقبالا كريماً واستضافه في قصر
وستمنستر^(٣) . على أن بطرس لم يحصل إلا على وعود كلامية من إنجلترا ، بل إن
ملكها صارحه بأن قبرص من أملاك سلفه ريتشارد قلب الأسد^(٤) ، وبذلك كان
كل منهما في هذا اللقاء يتكلم عن أمر يخصه ويسد السمع عن مطالب الآخر ، وإذا
كانت إقامة بطرس في إنجلترا قد استغرقت شهراً فانه لم يتوفر له خلاله الحصول على
تأكيد رسمي من جانبها في معاونته في مشروعه ، وإنما كان منتهى نجاحه يتمثل
في انضمام بعض الأفاقيين والمخاطرين إلى جانبه ممن يدفعهم حب الغامرة إلى الانخراط
تحت رايته ، ومن ثم عاد إلى فرنسا وفي النفس غصة كغصته يوم تجاهل إربان
الخامس إلقاء قيادة المحاربين إليه ، وفي باريس التقى بطائفة من الأمراء أمثال دوق
أنجو ، ثم رحل بعدئذ الى « بواتيه » حيث بعث الأمير الاسود من استقبله نيابة
عنه لانشغاله إذ ذاك بحفلات مولد ابنه^(٥) ، ورحب القوم به وأحاطوه بالرعاية

(١) Froissart : Chron. pp. XLII, 85.

(٢) يجعل ماشوهذه الرحلة إلى ألمانيا متأخرة عن الوقت الذي ذكره لها فروازار .

(٣) راجع الوثيقة رقم ٥ : Mas-Latrie : His. de Chypre, II, 247.

(٤) Chroniques des Quatres Valois, p. 128.

(٥) Chroniques de Pays-Bas et de France, III, p. 201.

الخطبة يريد أن ينهض بها « ترضى الرب عساها تفتح أمامه الطرق الى الأحرار المقدسة » (١) ، واضطجبه نائب الأمير الأسود الى بعض البلدان ليستوضح مشروعه الصليبي (٢) ، ولما تعرف ماذا كانت فكرة الأمير ومدى موافقته على الخطبة ، ولقد أصيب بطرس بضربة ألحمة حين وافاه نبأ موت الكردنبال « بريجورد » الذى كان من أشد المتحمسين لحرب صليبية دون نظر للقائمين بها ، وكانت وفاته يوم ١٧ يناير ١٣٦٤ ، وما لبث ملك فرنسا نفسه أن وقع فريسة للمرض الذى ألح عليه حتى قضى نحبه هو الآخر يوم ٨ أبريل من السنة ذاتها وهو فى إنجلترا زائراً للملك الذى أقام احتفالات تأبين ضخمة لجان الثانى تليق بمكانته ، ثم بعث بجثته إلى فرنسا حيث شيعت جنازته ودفن فى كنيسة سانت دنيس ، ونودى بابنه شارل الخامس ملكاً مكانه ، وكان من بين المشيعين للملك الراحل والمهثنين لحلفه الملك بطرس الأول (٣) الذى مكث يباريس حتى ١١ يونيو محاولاً حمل الملك الجديد على الوفاء بالمهود التى قطعها أبوه من قبل بامداد الحملة الصليبية بالأموال والعتاد ، ولكنه لم يجد منه تشجيعاً أو بارقة أمل ، ولم يكن ذلك عن عزوف عن حمل الصليب أو عن قلة اكتراث منه بالصالح الصليبي وأوضاع النصارى فى الشرق بالصورة التى صورها ميزير ، لكنه كان فى الواقع مشغولاً بأحوال مملكته الداخلية وما عاته من ويلات الحروب الأهلية ، لكنه مع ذلك لم يرضن بوصفه يبعض المال ، ووعد بمخاطبة إمبراطور ألمانيا فى هذا الصدد باعتباره « أغنى وأقوى منه » ، ولم يجد بطرس إذ ذاك بداً من مغادرة باريس مهيض الجناح مزعزع الآمال ، وكان نجاحه فى كل معنى من أجله هو « الكلمات الممسولة من غير ثمرة nisi in verbo jactante et effecta carente » على حد قول فيليب ميزير .

لم يحاول بطرس مقابلة البابا أربان الخامس مرة أخرى ، وإنما توجه إلى الإمبراطور الألماني فى كولونيا وعرج فى طريقه زائراً كونت فلاندرز ودوق برابانت ،

Froissart, pp. 9 seq.

(١)

Ibid. loc. cit.

(٢)

Chron. de Pays-Bas et de France, II, p. 201.

(٣)

ولعل أكبر توفيق اقيه في هذه الرحلة الجديدة كان في « إرفورت » حيث انضم الكثيرون إليه ثم اتصل بفردريك مركيز مسنى الذى رحب بدعواه لكنه أرجأ البت في مساهمته فيها حتى يستشير الإمبراطور ، وكان المركيز صريحاً ، إذ جعل مساهمته سلباً أو إيجاباً رهناً برغبة الإمبراطور .

على أن نسمة من الآمال هبت وسط هذه اللقائمات التى لاتبشر بالخير المطلق حيث التقى بواحد من اصحاب الإمبراطور وأذناهم الى نفسه ونعى به رودلف الثانى دوق سكسونيا الذى أكرم وفادته وأقام له الاحتفالات التى استمرت ثمانية أيام سوية مكثفياً بهذا وبالأموال والهدايا التى وصله بها ، وحينذاك أيقن بطرس أن اللواجهة الصريحة بينه وبين الإمبراطور^(١) أجدى من الاتصال بسواه من الأمراء ، ومن ثم مضى غداة هذه الاحتفالات إلى « براج » ورحب به الامبراطور ترحيباً عظيماً وقدمه إلى زوجته ، وجعل له الصدارة فى اجتماع عقده لمناقشة مشروعه الصليبي ، وربما كان ذلك لما انطع عليه الامبراطور من تدين عميق وإن كان لايرقى به إلى التضحية والالتزام فى حرب لم تأخذ الامبراطورية والمساهمون معها فيها استعدادهم الكامل ، وكان الامبراطور فى ذلك واقعيّاً لإدراكه من مجريات الأحداث ما فات ذهن بطرس من طرد الصليبيين من الشرق بعد احتلالهم إياه قرنين وأكثر من الزمان ، وتجلت واقعية الامبراطور فى بيان ما تهدد الصليبين من خطر لاسيا والملك القبرصى فى قوة ضئيلة لاتستطيع أن تقف أمام القوات الإسلامية حتى ولو ضمن النصر فى جولاته الأولى ضدّها لذلك اقترح الامبراطور عقد مؤتمر لمناقشة هذا الموضوع فى « كراكاو » يحضره أيضاً ملكا بولنده والمجر وذلك فى سبتمبر ، وصرح شارل بأهمية النهوض بحرب صليبية تجتمع فيها القوى الأوربية فى هذا الوقت بالذات ، كما كتب إلى البابا بذلك أيضاً ، واتفق الرأى فى هذا المؤتمر على تأييد بطرس فى تجريدته الصليبية ووسيلة ذلك الكتابة إلى شتى الأمراء الألمان لدعوتهم للمساهمة فيها .

(١) يستفاد مما ذكره Alfred Leroux : Recherches critiques sur les relations politiques de la France avec l'Allemagne (1292-1378), p. 273 seq.

أن الحائز لبطرس على الذهاب للإمبراطور ، إنما كان رغبته فى اختيار قائد صليبي جديد فى المكان الذى خلا بوفاة جان الثانى ملك فرنسا، وهو رأى فى حاجة إلى نص يدعمه، أو شهادة تزكيه ، بل إن منطق الأحداث وطبيعة بطرس ترفضان هذا الاتجاه .

كان مؤمراً « كراكو » ذروة النصر الذي يطامع بطرس في الحصول عليه ، لكن ماهو مدى تحقيق هذه القرارات والتوصيات واتخاذها الصورة العملية ؟

الواقع أن هناك ما يقارب شبه عدم الاكتراث ببطرس الأول كداعية لحرب صليبية يريد أن يزوج فيها بدول أوربة المختلفة تحقيقاً لغروره الذي زاده حدة وغناً اتصاره في العلايا وأنطالية من قبل ، وإذا كان ليو الخامس — ملك أرمينيا — قد التمس منه النجدة فإن الوضع هنا يختلف كل الاختلاف عن سابقه . ومن ثم لم يبق أمامه إلا الرحيل إلى قبرص وفي جمبته وعود وعهود وفي نفسه آمال وآلام ، وكان حرياً به بعدئذ أن يستعرض رحلاته وما تمخضت عنه ويزن بميزان العقل مدى ما قد يصيبه من نجاح أو فشل إذا نهض بحملة ضد مصر ، لكن يبدو أن اندفاعه كان أقرب إلى التهور منه إلى الحطة القائمة على دراسة جدية عميقة لقوة مصر الحربية ، وشاء أن يجعل ختام رحلته زيارة الجمهورية التي كانت منها بداية جولاته في أوربة فمضى في نوفمبر ١٣٦٤ إلى البندقية التي أكرمه دوجها « شلزي » ووصله بكثير من الهدايا وخطا خطوة أكبر بمن خطوات من قابلهم بطرس الأول من قبل ، فأعد سفينة حربية جهزها بكل معدات القتال ، وكان شكر بطرس للدوج يلائم ما قام به الدرج نحوه ونحو مشروعه ، وأخيراً بعد إقامة طالت مدة أشهر في البندقية غادرها الملك القبرصى يوم ٢٧ يونيو ١٣٦٥ ميمماً شطر بلده ، ووصله بعد قليل خطاب من البابا يبارك فيه خطواته القادمة هو ومن معه من المحاربين المسيحيين وقد أبقى بطرس وجهة حملته سراً حتى على من معه من القائلين ؛ والمعروف أن البندقية لم تكن جادة في تأييد بطرس حرصاً على مصالحها وامتيازاتها التجارية في الشرق الإسلامي ، ومن ثم صدرت الأوامر إلى نوابها في كريت بالإتصال بالمسلمين في مصر تنبئهم بأنها ليست ضالمة في هجوم قد يشنه بطرس عليهم بعد عودته من آسيا الصغرى ، والواقع أن البندقية كانت تقف مع الجانبين ، ففي الوقت الذي ترسل فيه هذه الإخبارية إلى مصر كانت سفنها تنقل المحاربين من شتى الأجناس^(١) الذين انخرطوا تحت راية ملك قبرص ، وأرسلت الرسائل إلى أمير أنطاكية بإعداد مجموعة من السفن تنضم إلى الأسطول المللكي المحارب ، حتى لقد بلغت هذه السفن الحربية المختلفة الأنواع ٧٢ واحدة على حد بعض الأقوال ،

ومائة على بعض أقوال أخرى^(١) ، وكان بصحبته في هذه اللحظة المندوب البابوي وفيليب دى ميزير ، فقام الأول باعطاء الصليب للجميع دون تفرقة بين مذهب وآخر ، واعترف الجميع وتناولوا القربان ، وكان فيهم « من لم يتناوله منذ عشرين سنة » .

حين فرغ الكلام من تلك الطقوس الدينية اجتمع كبارهم في مجلس خاص يتشاورون في تحديد وجهة الحملة^(٢) ، وهنا برز برسفال الكولونى واقترح الاتجاه إلى الإسكندرية ، فقد عرفها من قبل وقت أن كان بها أسيراً وعرف مسالكها ودروبها ، وراح ييسر لهم أمر الفتح ويهون عليهم ما يلقونه من المقاومة ، ووجدت هذه الدعوة استجابة من بطرس الذى وقف في سفينته وحوله من اصطفاهم من عليّة القوم ووجوهم^(٣) ومن بينهم فيليب دى ميزير ، وبعد أن باركهم المندوب البابوي وبارك الرايات الحفاقة صعد السفينة الملكية وردد الأفق هتافات القوم ودوى الطبول والأبواق والكوسات ، وصاح الجميع يهتفون ببطرس ملك بيت القدس وقبرص وقاهر المسلمين الكفرة^(٤) .

وهنا أخذوا يتشاورون أيتجهون إلى آسيا الصغرى أم إلى الشام أم إلى مصر ؟ وكان ذلك التشاور يوم السبت ٤ أكتوبر ١٣٦٥ ، واتجهوا في اليوم التالى إلى إحدى الجزائر بمخيلج خلقدونية لأخذ كفايتهم من الماء ، ثم انطلق الأسطول نحو

(١) اشترك في هذه الحملة شعوب أوربية عدة فكان منهم الفرنسيون « يمثلهم مارتل دى باسكفيل الذى روى فيما بعد لماشو المؤرخ تفاصيل الحملة » ، والانجليز « ومنهم ريتشارد لورد جراى الذى كان من أوائل من دخلوا الاسكندرية بعد الفزو أنظر Stubbs : Lectures on Medieval and Modern History, p. 194 وفرنسان التيتوتون والألمان والاطليان وبعض البيزنطيين وجامعة الفرسان الأسبترية ومنهم مائة فارس بأسلحتهم ، أنظر أيضاً 7 Makhairas : op. cit., II, No. 167, n.

Jorga : Philippe de Mezières, p. 284. (٢)

Cf. Makhairas : op. cit., (٣)

Jorga : op. cit., p. 285 note 3; Atiya : Crusade in the Later Middle Ages, p. 347. (٤)

وكان هتافهم إذ ذاك :

Vivat vivat, Petrus Jerusalem et Cepri rex, contra Saracenos infideles.

الاسكندرية ، وحينذاك ظهرت روح قوية من المعارضة في هذا السير تخوف القوم منبهة المقاومة الكبيرة التي يمكن أن تقوم بها هذه المدينة .

* * *

ترى ما هي الدوافع التي جعلت بطرس يندفع أخيراً في غير تردد لتوجيه الحملة إلى الاسكندرية دون باقي المناطق والأقطار ؟

ربما قيل إنه رتب من قبل — فما بينه وبين نفسه على الأقل — هذا الاتجاه ، ولعله قد أوحى به صراحة — أو تلميحاً — إلى برسفال السكولوني ، فكان من ذلك مباغتة الاسكندرية ، على أن النويري لحص أسباب الإقدام عليها دون غيرها فيما يلي :

١ — غضب الغرب من قرار أصدره الصالح بن الناصر محمد بن قلاوون في سنة ٥٧٥٦ هـ بمنع استعمال أهل الذمة في الديوان ، وإلزامهم بلباس خاصة (١) .

٢ — رفض السلطان الناصر حسن تحقيق طلب بطرس — حين ولى ملك قبرص — من التوجه إلى بلدة صور ليجلس على عمود « كمادة كل من تملك جزيرة قبرص » .

٣ — شجبه على ذلك أن مركباً قبرصياً كان قد تحترم في الميناء الشرقية بالاسكندرية في سنة ٧٥٥ « وبه كراسلة » أى « صليبيون » فلم ينهض لدفعه أحد .

٤ — وثوب أهل رشيد على فرنجي تخلف من جماعة هاجمت البلد وقتلهم إياه .

٥ — هجوم بعض الفرنج في ٢٧ شعبان ٧٦٤ على « بوقير دون أن يجرد أحد من أهلها في وجوههم سيفاً فطمع بطرس في الاسكندرية » .

٦ — انتقامه لما جرى لبعض البنادقة من قتل على يد « عوام المسلمين بالاسكندرية » .

على أن بعض هذه الأسباب يبدو فيه الافتعال والتماس العلة لعدم مقاومة المدينة كمسألة التنبؤ بسقوطها يوم « جمعة » على يد « ملك مسيحي من الغرب » لكننا

نستطيع أن نقول إن الملك القبرصي كان يعلم بضعف ناحية الباب القديم من الاسكندرية^(١).

على أية حال بلغت الحملة مشارف الاسكندرية يوم الخميس ١٩ أكتوبر ١٣٦٥ وازدهت الفرحة الغزاة وطالعهم قباب كنيسة القديس مرقس والقديسة سنت كاترين والعمودان اللذان يقول المسيحيون أن القديسة كاترين استشهدت عندها ، والحجر الذي قطعت عليه رقبة يوحنا المعمدان^(٢) ، وأبصروا عن بعد المسلمين في عمامهم البيضاء والنصارى في قلانسهم الزرقاء واليهود في طواقبهم الصفراء كما يستدل على ذلك من وصف أحد الرحالة المعاصرين ، وكان بالمدينة كثير من الفنادق الخاصة بالجاليات الأوربية المختلفة كالبنادقة والفرنسيين والقشتاليين والجنوية وأهل مرسيليا والقبارصة^(٣) ، بل وكان للمدينة ستة أبواب من الحديد ، هذا إلى وجود صهاريج^(٤) للمياه بها . كما كان جزء من مياه الشرب يأتيها عبر قنوات قامت على حافتها بيوت الأهالي ، وتستطيع المدينة الحياة على ما في هذه الصهاريج حتى في أيام الحصار الطويلة اللهم إلا إذا سيطر العدو على هذه القنوات لا سيما عند باب رشيد .

على أن الاسكندرية لم يكن معنياً بها كخط دفاع عن البلاد ، فكانت حاميتها قليلة^(٥) العدد ، ولم يكن لدى الأهالي من السلاح ما يستطيعون به دفع الغير ، ويبدو أن سكانها لم يكونوا يتوقعون هجوماً ليس له ما يبرره من مجريات الأحداث السياسية ، بل لقد ذهب بهم الظن إلى أن هذه السفن إنعاجات للمتاجرة والاستبضاع ، وراحوا يحتلّون بهم « وطن أهل الاسكندرية أنهم تجار البنادقة ينتظرونهم بأنون بتاجرهم

(١) أنظر جال الدين الشيال: الاسكندرية ، طوبوغرافيتها .

(٢) T. de Swynburne : Arch. de l'Orient Latin, II, 380. (٢)

(٣) أنظر وصف اسكندرية — وإن كان قبل ذلك بقرنين — من الزمان والأمم الغربية التي يعيش أبناؤها فيها في رحلة بنيامين ، ترجمة عزرا حداد ، بغداد ١٩٤٥ ، صفحة ١٧٨ — ١٧٩ .

(٤) النويرى : الأعلام .

(٥) Scheffer : Etude sur la dièse de Chemins de Babiloine, (Ar. Or. Lat.) II, 98. (٥)

على جارى عادتهم فى كل سنة ، وكان تجار المسلمين جلبوا لهم من الهند أصناف البهار يبيعونها عليهم ويتعوضون عنها من متاجرهم» (١) فكانت فرصة للغزاة للاستعجال تأهباً لقتال العدو ومهاجمة الثغر ، حتى إذا كان العاشر من أكتوبر (= ٢٢ محرم) أفصح القادمون عن حقيقتهم واقتربت مرأى بهم « إلى أن حطت قلاعها ببحر السلسلة وذلك من جهة الباب الأخضر المسدود ، وكان الباعة قد خرجوا من البلد بطبائليهم وقدورهم ودسوتهم ملآنة بالطعام يبيعونه على من بالجزيرة» (٢) . ولم يكونوا فى سلاح يستطيعون به ودفع هذه الجماعات الغيرة فالفرنج لا بسون الحديد من الفرق إلى القدم ، والسلمون كلهم على وضم « فكيف يبرز العارى لمن كفى الزرد والنضيد» (٣) .

وامتدح القتال يوم الجمعة واستبسل الأهالى والمغاربة فى الدفاع عن « مدينة الإسلام» ما وسعهم الجهد ، وكان والى المدينة صلاح الدين بن عرام غائباً عنها فى الحج وملك البلاد شيمان بن حسين فى سرياقوس وأتابكة يلبغا العمرى فى الصيد ، أما القائم بحراسة الثغر فاسمه « جنفرا » .

بدأت الأمور هينة أمام المغيرين الذين لم يجدوا ثم عسكراً يخرج للملاقاتهم ، وإنما كان جماع المقاتلين أفراد العامة والبدو وبعض المغاربة وأهل الربط والحاتقاوات ، ورأى الملك أن ينزل المحاربون إلى المدينة فى الصباح وكان دق الكوسات على مركبه إيداناً بيدء الهجوم ، وكان القتال عند الباب القديم ، وكان من رأى المغاربة « أن يدخل الناس المدينة يتحصنون بأسوارها الحصينة ويقاثلون من خلف الأسوار ليظن العدو أن خلفها كل رجل كالأسد المغوار ، يذيقونه برميهم عليه الشدة ، إلى أن تصل من مصر النجدة» (٤) ، لكن أهل الربط خافوا على ربطهم فلم يلتفتوا لهذا رأى ، ومن ثم يولمهم النويرى فى قوله « لو كان المسلمون ... تحصنوا بالسور وقتلوا من ورائه كل رجس كفور ، لسلموا من القتل والنهب والأسر ... فالدن

(١) النويرى : شرحه .

(٢) النويرى : شرحه .

(٣) النويرى : شرحه .

(٤) النويرى : شرحه .

خافوا على ربطهم تخربت ، ودورهم التي داخل البلد^(١) نهبت ، ، وحينذاك تسلل أحد المهاجمين واسمه « فرلينو » مع ثلة من المحاربين وحاصروا المدافعين عن الثغر ، وأخذت سهام الغزاة المسلمين من كل جانب فجعلت الجياد ، وجرح جنفرا نفسه .

على أنه يبدو أنه لم يكن من اليسير على المهاجمين احتلال الإسكندرية ولم تجدهم نفعا مفاجأتهم إياها على حين غفلة منها ، وأدركوا أن الوقت في صالح المسلمين إذ لا بد أن تأتيهم النجدة من القاهرة ومن غيرها من مدن الدلتا ، وحينذاك قد تدور الدائرة على المغير ، وتضيع مصالح المسيحيين الأوربيين داخل البلاد ، ومن ثم أخذوا في التشاور فيما بينهم عما يصنعون ، فرأى البعض منهم ألا جدوى من الاستمرار في مهاجمة الثغر ، وأن الخير في العودة من حيث جاءوا ، وكان « أميرال » رودس حامل لواء هذه الفكرة المؤيد لها ، غير أن ذلك أغضب بطبيعة الحال الملك الذي أصبحت كرامته بين ملوك النصرانية وشعوبها مرهونة بانتصاره وتحقيق مشروعه الذي قضى ثلاث سنوات في تجميع القوى من أجله ، يضاف إلى هذا أن إخفاقه في الاستيلاء على الإسكندرية يؤكد صحة فكرة البابا عنه حين جعل قيادة القوات المحاربة لجان الثاني ملك فرنسا ويؤيد ما انطوت عليه نظرية ملك إنجلترا من عدم تحدته جدياً معه في شأن ما جاءه من أجله استخفافاً منه به ، لذلك تقدم بطرس رافعاً عليه الخاص ونادى بالمهجوم على المدينة ، وأعلن منحه ألف أفلورنقى لأول مقتحم لأسوارها وخمسمائة لمن يليه وثلاثمائة لمن يأتي بعدها ، ولقد وجد بطرس أكبر مؤيد له في الهجوم في شخص « برسفال السكولوني » الذي اقترح إذ ذاك أن يشن الغزاة حملتهم من ناحية باب البحر ، وأخذ هو بنفسه القيادة في هذه الجبهة .

على أن المقاومة البرية من أهالي الأبراج ردت في أول هجمة على أعقابها ، فلما علم بطرس بذلك الارتداد المهين أنكره عليه ، وأخذ هو على عاتقه مهاجمة المدينة واصطعب معه جماعة من البارونات والاستبارية ، فكان التوفيق حليفه هذه المرة وهاجم الباب وأضرم فيه النار وبذلك تحقق له النصر ، ووجد أحدهم ناحية باب الديوان من غير حراسة فافتحمها وافتحمها معه جماعة آخرون ، وحينذاك فر المسلمون

إلى الداخل ، وتقدم الغزاة فدخلوا المدينة من ناحية باب البحر وكان دخولهم إليها ظهيرة يوم الجمعة ١٠ أكتوبر ، وحينذاك اندفع الإسكندريون إلى باب سدرة والزهرة ورشيد ، وجرت مذبحة فظيعة فر إثرهما من بقي على وجوههم حيارى أمام الملك «الذى لم يجد بالإسكندرية أحدا من جيش الحلقة ، فدق فيها بجيشه دقة ، وأكل اللحم وشرب المرقعة » .. وتمكن جيشه منها بعد صلاة الجمعة ، فنهب وسبي وحرق وخرب بعد أن قتل من المسلمين كثيراً ... وكان الرجال على الساحل ليس عليهم ملبوس حرب طائل ، فرماهم الفرنج بالسهم فطاروا كطيران الحمام (١) ، وأراد الملك التقدم شطر القناة (المحمودية الآن) لكنه كاد أن يقتل وكانت نجاته بالفرار إحدى المعجزات .



كان الخبر قد وصل إلى القاهرة فبادر السلطان بإرسال الأتابك يلغا على رأس جيش بالغت المصادر (٢) الفرنجية في تعدادة فحملته مائة ألف مقاتل ، وكان في مقدمتهم قطلوبغا النصوري (٣) .

هنا أخذ البعض يحذ فكرة الارتداد ، وازداد عدد أنصاره لحظة بعد أخرى وحسبنا أن نشير إلى أن من بين هؤلاء كبار رجالاته أمثال أميرال ردوس وفيسكونت تورين والمغامرون الإنجليز والفرنسيون ، بل إن أخوى الملك انضموا إلى هذا الفريق المنسلخ عن التقدم في مصر ، وهكذا وجد بطرس نفسه في شرذمة ضئيلين لا يجاوزون مائة فارس ، وحيط به وتعمدت الأمور بصورة حملته على الارتداد إلى سفنه الباقية في الميناء القديم ، بعد أن أعمل الجميع النهب والسلب والقتل فيما أمامهم ومن صادفوه من أهل النغر ونازليه ولم تكف أيديهم حتى عن كثير من الجاليات الأوربية التي اتخذت الإسكندرية داراً لها ، ولم يجد الغزاة من يقف في سبيلهم حين ارتدادهم إلى شوانهم وأغربتهم وحينذاك كانت القوات المصرية قد

(١) النويرى : الأعلام ، ص ٢٣٥ .

Chron. des quatre valois, p. 166.

(٢)

(٣) راجع المقرئى : السلوك .

وصلت فاحذت في محاربة القلة الباقية من الفرنجة الذين وقفوا قرب القنطرة لحماية المرتدين^(١) ، ورأى الملك بطرس بعين رأسه الصليبان تخضع من الأماكن التي وضعها فيها .

وكان القدر كان يدخر للفرقة ضرباً أخرى أنزلها بهم حيث هبت عاصفة فرقت سفنهم ، فعزاهم مزير - وهو من هو في تدينه - والندوب البابوي إلى « نعمة الرب وغضبه » وكتب الأخير رسالة إلى البابا تقطع رأس^(٢) وحسرة من هذا « الارتداد الخزي » وصدق النويري إذ يقول في أكثر من موضع « جاءها لصاً وخرج منها لصاً » ، وعاد الأسطول إلى ليماسول حتى مضى كل واحد لوطنه . أما الملك فقد أصدر أمراً بمنع التجارة مع مصر .

على أن الجانب المصري أخذ يلحق جراحه بمدت مباشرة . فبادر بلبغا باعادة ترميم الإسكندرية وتحصيناتها . وصادر أملاك الكثيرين من فرنجة مصر والشام تعويضاً عن الخسائر التي لحقت بأهل الثغر^(٣) .

* * *

لكن هل انتهت الواقعة إلى هذا الحد من الأحداث ؟ وهل كان ارتداد الجيش المهاجم خاتمة لذلك الغزو ؟

الواقع ينفي السكوت ، فقد عمد الملك إلى إرسال مندوب عنه هو « جان الصوري » - أميرال قبرص إلى كل من البابا وملك فرنسا ودوج جنوة يطلب منهم مساعدته ، وكان بدء هذه السفارة في مارس ١٣٦٦ م (= رجب ٧٦٧) ، ووجد عطفاً من جميع أنحاء أوربة على ما قام به من عمل صليبي وإن أرجعوا فشله عن تحقيق هدفه النهائي إلى خيانة من كانوا معه من المحاربين ، وترددت صيحة تطالب بالنجدة ، ومضى السفراء إلى بلاط أراجون لدعوته للاشتراك في حملة قادمة ، وإن

Jorga: des quatre valois, p. 166.

(١)

Lorga: Ph, de Mezlières, p. 303.

(٢)

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية « ط القاهرة ١٣٥٨ » ج ١٤ ص ٣٢٣ .

كانت رسله في هذا الوقت بالذات بمصر تسأل العفو عن أسرهم مصر من أهل بلده
وتطلب عقد معاهدة بين البلدين .

لقد كانت هناك أطراف كثيرة يعنيها أن ينعقد الصلح بين قبرص ومصر ،
ولكل منها دوافع تختلف عن بواطن الأخرى ، على أنه وجد إلى جانبها جماعات
كان من صالحها أن تظل الحرب مشبوبة بين الطرفين ، والتوتر مستمراً ، ومن هذه
الطائفة الأخير جماعة الفرسان الاستبارية الذين كانوا يرون في الحرب مظهراً من
مظاهر فروسيتهم وتوجيهاً للفكر الأوربي نحوهم باعتبارهم حينذاك حماة الدين النابيين عن
بيضته والناهضين بمبء مقاتلة المسلمين في وقت قصرت فيه دول أوربية كبرى - بفهموم
ذلك العصر - عن متابعة الحرب جدياً ، ويقف إلى جانب الاستبارية في هذا
الاتجاه الجيش القبرصى الذى « كان يهتم بالسلب والنهب » ، وهو أمر لم يخف على
جماعات كثيرة من مستشارى الملك فصارحوه بهذا الواقع مصارحة لا تقبل
الجدل^(١) .

أما الأطراف الراغبة في الصلح فكانت قبرص ومصر ذاتهما وجماعات التجار
الأوريين .

أما قبرص فقد رأى ملكها رأى العين عدم تمسك الدول الأوربية بصورة
عملية للحرب وقتال المسلمين في وقت انشغل فيه معظمها بالنزاعات الداخلية والقتال
على الحدود الخاصة به ، وقد ترجم النويرى عن ذلك ، ولكن بصورة أخرى حين
قال^(٢) : « إن ملوك النصرانية لامته على هروبه من الإسكندرية ، وقالوا له إن الذى
فعلته فعل اللصوص لأفعل الملوك دخلتها لاصاً وخرجت منها لاصاً وذلك لعدم
قدرتك على مقاتلة سلطان مصر ، فثبتت لصوصيتك عند سائر ملوك مصر وسائر
أجناس الرومانية » .

كذلك فإن قبرص تأثرت من غير شك بالهزيمة التى لاقتها فى الإسكندرية حين
انسحبت قواتها بعد أن اقتصر دورها على النهب والقتل والحرق والتدمير ، وأدى

Makhairas : op. cit. loc. cit.

(١)

(٢) النويرى : الأعلام ، صفحة ٥١٦ .

هذا كله إلى إخلال الميزان التجارى لها^(١) ، وقد شاركها في هذا الوضع الأخير بعض الجمهوريات الإيطالية التجارية لا سيما البندقية ثم جنوة ثم جماعة التجار الكتلان ، ومن ثم اتحدت البواعث لدى هؤلاء على التماس الصلح وعقده حتى تظل التجارة آخذة مجراها الطبيعى ، وشرعت البندقية فى إرسال سفراء عنها إلى السلطان تسأله العفو عن رعاياها البنادقة المقيمين بمصر وترجوه رد أملاكهم إليهم وتجديد ما بين البلدين من اتفاقيات ، غير ملقية السمع إلى رجاء البابا إياها فى الامتناع عن مرارلة مصر بل ضربت بالتماسه عرض الحائط ، وتعددت سفاراتها إلى مصر ، وترددت بينها وبين قبرص ، فكانت أول سفارة رسمية منها فى ٢٩ يناير سنة ١٣٦٦^(٢) ، وعلى رأسها فرنشيسكو بمبو F. Bembo ، ولقد أوضح ماخيرات ، معاصر هذه الأحداث أن رسل البندقية وقفوا أمام السلطان يتصلون من معرفهم بمقدم الأسطول القبرصى إلى الإسكندرية ويرمون من مساعدتهم إياها فى تدبير خطة الهجوم الفاشل^(٣) .

لم يفت البندقية فى الوقت ذاته أن تبث إلى البابا رسلا آخرين تفسر موقفها وأن « تجارتها هى حياتها » ، وأن التوقف عن التجارة مع مصر هو « النهاية الحتمية للوجود البندقى ، وأنحت باللائمة فى الوقت نفسه على ملك قبرص الذى لم يرع فى هجومه على الإسكندرية جاليتها التجارية هناك فامتدت يده بسلبها حتى لقد نال هذه الجالية من الضرر أكثر مما نال المسلمين » ، لكن ذلك العذر لم يجد عناية لدى البابا إربان الخامس الذى لم تكن البندقية تتوقع منه غير الرفض ، أو على الأقل سكوته عن مسلسلها من غير لا أو نعم ، ولذلك كان اعتمادها على ما تتمخض عنه سفارتها إلى مصر التى أوقفت ردها على التعرف شخصياً على رأى الملك القبرصى^(٤) .

(١) أشار إلى هذا الزوبرى فى الأعلام ، صفحة ٥٢٧ ، حين عرض لموقف القياصرة وتأفهم من ملابهم وتفكيرهم فى الاقتضاى عليه وتولية أخيه مكانه حيث قالوا له « قصدا الإراحة منه (أى من الملك) ونملكك رقابنا لتخمد الفتن ونصطلى مع صاحب مصر لتصير بضائعنا تباع بالإسكندرية لنزح فيها الفوائد القوية ، كما كنا أولا ، ونحجر فيها بضائعنا الكاسدة التى صارت بفعل أخيك فاسدة » .

Mas-Latrie : Hist. de Chypre, III, p. 753.

(٢)

Makhalras : op. cit., II, No. 176.

(٣)

(٤) كان الملك قد فقد فى هذه الأثناء أحد اثنين كانا من أكبر الشجعان له على التجربة الحربية ونهى به « بيبى توماس » وكانت خسارته إياه « أعظم من خسارته الإسكندرية » .

في هذه الأثناء جاءت رسل البندقية الوافدة من القاهرة (أبريل ١٣٦٦) ، غير أن قبرص كانت قد أعدت حملة بقيادة أميرال قبرص الجديد بطرس دي موستري لمهاجمة بيروت^(١) ، فأنسكرك البنادقة ذلك العمل من جانب الملك ، ورأوا مقدار الخطر العظيم الذي يهددهم إن هرو أنفذهوا ، وأفصحوا له عن مخاوفهم والتسوا منه مصالحة مصر حتى يتسنى لهم أخذ بضائهم ، وحينذاك ، «يفعل ما يحول له» ، بل لقد ذهبوا إلى أبعد من ذلك فعرضوا عليه أن يدفعوا له كل ما أنفقه على إعداد هذا الأسطول الجديد ، فاستجاب لهم ووعد بتأجيل الحملة حتى يرى ما تتمخض عنه مطالبه منهم التي تتلخص في أن يرسل السلطان المملوكي إليه سفراء للتفاوض في عقد السلم^(٢) ، وإذا كانت الحجة التي تدرع بها بطرس في هذا التأجيل هي «حبه للبنادقة» و «كراهيته في أن يلحقهم ضرر يكون هو سببه» فإنه يبدو لنا أن هناك دافعاً آخر حمّله على النفاذ بالاستجابة لهم هو أن مصر شرعت في ذلك الوقت في بناء سفن حربية جديدة في بيروت ، وأخذت بعض سفنها تهاجم سواحل قبرص مما حمل الاستتارية على الشروع في دعوة الغرب للاتحاد لمواجهة الخطر الإسلامي في شرقي البحر الأبيض المتوسط .

على ضوء هذا يمكن أن نفسر قبوله لعرض البنادقة وإصداره أوامره إلى قائد قواته البحرية «جان دي موستري» في السكف عن النهوض لمهاجمة بيروت .

غادر رسل البندقية فاما جوستا ومضوا إلى القاهرة مقدمين عروض الجانب القبرصي فاستجابت لهم القاهرة وأرسلت من يثلها ، وركبوا سفينة بندقية بلغت بهم جزيرة قبرص يوم الأحد ٣١ مايو ١٣٦٦ ، ودخلوا نيقوسيا يوم ٢ يونيو فأنزلوهم في منزل أحد كبار لوردات الجزيرة حيث اجتمع الملك ووجوه رجال مملكته الذين يبدو أنهم كانوا كارهين للحرب ، فقد بينوا له وجوب استجابة سلطان مصر لأن «التهب لا ينتفع به غير الجيش ، أما نفقات الحملة فمليك أنت وحدك» . والظاهر أن هؤلاء الرسل لم يكونوا مفوضين في التحدث في شروط الصلح ، وإنما كان إرسالهم إثباتاً لحسن

Makhairas : op. cit., N. 177.

(١)

(٢) لكنه طلب إليه توجيه قواته لمهاجمة بعض البلاد التابعة للأتراك ، ومن ثم ذهب إلى العلاء التي يسميها Machaut : La Prise d'Alexandrie p. 120 ، وكان ديلور ، وربما كان ذلك تحريفاً لاسم البقعة التي شيد بها عليها علاء الدين السلجوقي حيث كانت تعرف باسم Coracestum ، راجع لي سترانج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٨٣ .

نوايا السلطان ورغبته في عقد السلم والاستجابة لوساطة البندقية وعدم ردها مخدولة فيما جاءته من أجله ، وتخلو المراجع من الإشارة إلى الحديث عن شيء من مطالب السلطان ، واكتفى الرسل بإعطاء ملك قبرص الهدايا المرسله من شعبان بن حسين .

الظاهر أن هذه الوفادة -- رغم سلبيتها المطلقة -- أرضت كبرياء الملك أمام أهل مملكته من الرعايا والنبله إلى جانب ما كان لها من صدى عند دول أوروبا ، وقد بعث الملك ثلاثة من قبله -- رداً على هذه السفارة -- هم يوحنا القونس الكتلاني وجورج ستىكا وبولس البولونى ومعهم الهدايا للسلطان ولكبار رجال مملكته ، وانفكاً الوفدان إلى مصر : المصريون في سفن البندقية والقبارصة في غراب قبرصى .

استقبلتهم مصر استقبالا طيباً ، ولم يرتفع صوت في مجلس السلطان أو خارجه باستنكار الصلح مما يشير صراحة إلى رغبة مصر في السلم والمهادنة ، بل لقد أرسلت وفداً من رجالها بحجة رسل الملك القبرصى وزودتهم برسائل تتضمن مطالبها التي كانت تلخص آنذاك في رد من أسرهم الملك من المسلمين أثناء إغاراته على الإسكندرية حتى يقوم ذلك دليلاً على حسن نيته وصدق طويته ، ويكون مقدمة لصلح يستقر عليه الطرفان ويلتزمان به في المستقبل ، فلم يعارض بطرس في هذا الطلب الذى رآه طبيعياً ، وأمر بجمع الأسرى ووكّل بهم إثنين هما : « وليم دى راس » ، وكتب ديوانه سير « بولس دى بولون » غير أن الأول منهما ما لبث أن دامه مرض عاقه عن متابعة الرحلة فنهض بها الثانى وإن ظل على ظهر مركبه خارج الإسكندرية ، ولكنه أرسل الأسرى إلى القاهرة .

على أننا لا نعرف الداعى الذى حدى بسير بولس على عدم النزول إلى الساحل حين وصوله إياه ، وإن كان ماخيراس^(١) يملل ذلك « بمصافته وفطته » فعلى الرغم — كما يقول هذا الكاتب — من أن الذين ذهبوا لاستقباله خاطبوه بلسان معسول ليدخل الميناء إلا أنه توجس منهم خيفة حين رآهم يتهامسون فيما بينهم فذهب به الظن إلى أنهم يتآمرون عليه ، ومن ثم شرع القلاع وأبحر إلى قبرص^(٢) ويحاول نفس

Makhairas : op. cit. No. 185.

(١)

(٢) ينص Iorga, op. cit., p. 353 صراحة على أن بولس هذا ألقي القبض عليه في

مصر ، ويؤرخ لذلك أكتوبر ١٣٦٦ .

المؤلف تبرير هذا الموقف بأنه لما ترمى إلى صمم السلطان تراجع^(١) العرب عن تجميع قواته لمحاربة مصر ، احتج السلطان بأن قبرص أوفدت رسلاً أقل مكانة ممن ينبغي إرسالهم مثله ولمثل هذا الموقف .

تأزمت الأمور من جديد بين الطرفين في تحقيق ما سعت البندقية من أجله وتعثرت خطوات الصلح بين الطرفين ، وأنحى الملك على البنادقة باللائمة إذ عدم قدسخوا به فيما اضطلعا به ، ورمم بأنهم هم الذين كانوا السبب في انصراف العرب عن متسابعة تجميع قواه لمساعدته في محاربة مصر ، وحينذاك عاد الملك من جديد لتعريب القوى الأوربية لإنجاده في مشروعه في الهجوم على السلطان المملوكي في أرضه وتوابعها ، فأرسل إلى أميديو السادس (١٣٤٣ - ١٣٨٣) كونت سافوى - وكان إذ ذاك في القسطنطينية - فوجده بعد لآى ، ولكنه اعتذر عن المساهمة في الحرب إلى جانبه بانشغاله في مساعدة قريبه الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوجس^(٢) فكان ذلك ضربة للملك وإن خففها عنه تطبيع فيلو ريعوند دى لسبار بسفنه وجون الأباينى صنجال بيت المقدس وهو ابن خالته ، وساعدت الظروف الملك حين هاجم أهل بروت سفناً للبنادقة مما حمل الأخيرين على تأييد بطرس .

* * *

خلا المسرح التجارى في موانى مصر إثر هذا الحادث من البنادقة مما أفسح المجال لتجار السكتلان الذين استغلوا الفرصة لصالحهم فطالبوا ملكهم بالتفاوض مع مصر حتى يمكن لبضائهم أن تجد بها السوق الناقصة بيعاً وشراءً ، فلم يتوان ملكهم عن إرسال بعضهم رفقة رسول من أسرته ، لكنهم وجدوا اعتراضاً من جانب السلطان حملهم على المضى إلى قبرص ، وذلك في نوفمبر ١٣٦٦ ، وحينذاك بادر رئيس فرسان الاسبتارية ريعوند بيرنجر (١٣٦٥ - ١٣٧٣) في رودس بإرسال سفن لحساب منظمته لمساعدة ملك قبرص ، وبذلك اجتمع لديه عدد ضخم من السفن الصغيرة والكبيرة المحاربة ، وجعل الملك لنفسه القيادة ، وعين بقية الرجال المحاربين قواداً للسفن الأخرى .

(١) وذلك بناء على ما كان ملك قبرص قد أذاعه وبينه لهم من قرب عقده السلم مع مصر .

Cambridge Medieval History, Vol. IV, p. 617.

(٢)

فلما كان يوم عيد^(١) الميلاد عند الشرقيين من سنة ١٣٦٧ (٥ جمادى الأولى ٧٦٨) خرج الأسطول أبهى ما تراهى ولسكنه ما كاد يتوسط البحر حتى هبت عاصفة هو جاء فرقة بعضه عن بعض « ولم تستطع سفينة أن ترى أين ذهبت الأخرى » على حد قول ماخيرات^(٢) وظلت العاصفة تصرف المراكب وجهات مختلفة، فردت الملك إلى ساحل جزيرته ووجهت سفينة لسبار وأخريات معها إلى ساحل بلاد الشام حيث هاجت طرابلس وأسروا إحدى الشخصيات الكبيرة واسمه المقدم داود^(٣)، وإلى هذا يشير ابن كثير^(٤) في قوله « وقد بلغنى أن الفرنج جاءوا طرابلس غزاة وأخذوا مركباً للمسلمين من الليناء وحرقوه والناس ينظرون ولا يستطيعون دفعهم ولا منعهم وأن الفرنج كروا راجعين وقد أسروا ثلاثة من المسلمين » على أى التويرى^(٥) يفسر هذا الهجوم تفسيراً آخر، يعزوه إلى لوم ملوك العرب إياه على عدم قدرته على إتمام حربه فى الاسكندرية، وأنه لما سمع قالهم وتأنبهم إياه « كشف رأسه، وخلع من رجله مداسه . . . وجمع المشوم، من أقاليم الروم، كل كافر مذموم، وقصد طرابلس الشام فى سنة ثمان وستين وسبعمائة، فأرسل الله عليه ريحاً عاصفاً كسر من مرا كبه بضعة عشر مركباً، ففرق من فيها وتفرقت بقية المراكب، فنها سالم وعاطب . . . ثم أتى إلى طرابلس الشام » .

ويقال إن مصر خشيت مغبة هذا التجمع الحربى، وأدركت مدى الخسارة التى لحقت بالثغر الشامى من جراء امتناعها عن الصلح، فأطلقت سراح جماعة من

(١) اعتبر Jorga, op. cit., p. 354 خروجه يوم ١٧ يناير، وقد بين التاريخ الصحيح الأستاذ داوكرز فى تعليقاً، على ماخيرات (II, No. 191, n. I) وبين أن اختلاف التواريخ راجع إلى سهو من الناسخ فى الخطبة الأصلية لماخيرات .

Makhairas : op. cit. No. 191.

(٢)

Cf. Makhairas : op. cit. loc. cit.

(٣)

(٤) ابن كثير : البداية والنهاية ١٤ / ٣٢٣ - ٣٢٤ .

(٥) التويرى : الأعلام، ص ٥١٧ .

كبار أسرى القبارصة والفرنجة وأرسلت^(١) معهم رسلا من قباها إلى بطرس لطلب المودة التي زكاها لديه كبار رجاله وخوفه « من ثروة سلطان مصر التي لا تنفذ مهما صرف منها على شئون الحرب » فقبل فكرة المسألة ، وكان ذلك بحضور رسل السلطان يوم ١٠ فبراير ١٣٦٧ (= ٩ جمادى الثانية ٧٦٨ هـ) .

واشترط الملك شروطاً قبلها سفراء مصر ، وقد اهتم اهتماماً خاصاً ببيت المقدس ولعل الإصرار عليها كان لتثبيت مكانته في نظر حكام الغرب ، واشترط بطبيعة الحال إرجاع الأسرى إلى قبرص ، على أن من هذه الشروط - كما يذكرها مؤرخ هذه الحادثة^(٢) - ما لا يكاد يصدق العقل إذ اشترط « أن يكون له نصف دخل مكس ما يدخل الجرك في مصر والشام » كما طلب أيضاً إعفاء الحجاج الزودين بخطابات توصية منه من ضريبة الزيارة في بيت المقدس وغيره من الأماكن المقدسة الأخرى ، وعلى السلطان أن يبعث إلى فاما جوستا بالعمود الذي يقال إن السيد المسيح ربط عليه . وأوقف السفراء المصريون تفضاه هذه الشروط على موافقة السلطان الهائية عليها . وليس من شك أن هذه شروط يعلمها الغالب وليس بطرس في هذا الموقف ، وكان من اليسير عليه أن يدرك أن مثلها ما كان لها أن تجد استجابة من مصر .

* * *

جهز الملك سفارة رباعية جديدة من جيمس دي نورس ، وبطرس كامبن ، وجيمس الصغير وسير هيج وزاد على ذلك بأن أعلن في جميع أرجاء قبرص بجمع كل من يكون فيها من المسلمين « وإرسالهم إلى فاما جوستا أو أفهسية بل ذهب أبعد من ذلك فأعلن أنه يحق لكل من تنصر^(٣) - وكان مسلماً - ولأهل الشام

(١) كان الوفد المملوك بصحبة اثنين من الجنوية هاجريوفاني أمبراتي ، وتبرو راكاني ،

راجع Iorga, op. cit. p. 350 d'après Machaut

Makhadras : op. cit.,

(٢)

(٣) يفسر النويري : الأعلام ، صفحة ٤٠٨ ، تنصر هؤلاء المسلمين بأنهم كانوا ممن أسرمهم الملك في غارته على الإسكندرية وفتنهم الفرنج في دينهم بالضرب الأليم والعذاب المهن فتنهم من تنصر ، ومنهم من مات تحت العقوبة وما كفر ، وإلى هذا يشير شاعر الحادثة ابن أبي حجلة في قوله :

وكم قتلوا فيها كبيراً ونصروا صغيراً من الأسرى ولا سيما البكر
فياك من هول عظيم وفنسة أضر على الإنسان من فتنة القبر

للموجودين بقبرص أن يذهبوا بحبة السفن المقلعة إلى مصر ونادى في بلاده « أن من كنتم مسلماً صغيراً أو كبيراً قتل »^(١) وعهد بهؤلاء جميعاً إلى سير جيمس دى نورس .

وحدث إذذاك أن هاجم المسلمون قلعة « جوريجوس » في أرمينيا ، فرأى القائد التريث وتوجه بهض قواته لمحاربة بنى قرمان هناك ، وتراعى إلى سمعه أيضاً ما حدث في القاهرة من ثورة مماليك الأتابك يلبغا بن عبد الله العمري الناصرى^(٢) عليه ، « فقد نفرت قلوبهم منه لكثرة ظلمه وعسفه وتنوعه في العذاب لهم على أدنى جرم »^(٣) ونجحوا أخيراً في قتله ، وبفسر ماخيراس^(٤) سر هذه الفتنة بأن يلبغا كان راغباً في مصالحة الفرنجة والقبارصة ، وهو خطأ في التفسير كما يخطئ فيما يذكره من إقامة أسندى الناصرى^(٥) مكانه وإن كان يسميه « بحسن دمور » ، وتضطرب المصادر الغربية في تتبع الأحداث ، فبيناهم تذكر توجيهه جيمس دى نورس لمحاربة بنى قرمان ، إذا بها تذكر تشوق الملك لسمع الأخبار من مصر ومدى قبول السلطان شعبان بن حسين لشروط الصلح التي ارتضاها سفراؤه أثناء وجودهم بالجزيرة ، ولكن يبدو لنا أن السفارة قد عادت إلى مصر التي علمت بحملته ضد بنى قرمان وتشككت في صدق نوايا بطرس في اللوادة ، فلم تجبه على رسالته في انتظار ما تتمخض عنه الأحداث ، وبزكى هذا الرأي عندنا موقف الجنوية حينذاك فقد خافوا العواقب المترتبة على تأخر الصلح بين الجانبين وأدركوا مقدار الضرر الذى سوف يحيق بمصالحهم التجارية في مصر ، فأرسلوا إليها وفادة جنوية بقيادة أحد كبار تجارهم واسمه « بطرس دى كانيل » يلتمسون عقد الصلح بينهم وبين السلطان الذى رفض رجاءهم ورد عليهم بأنه « لايمقد الصلح إلا مع ملك قبرص وأنه في انتظار رسول من حانبه »^(٦) ، فلم يجد السفير الجنوى بداً من المضى

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ، ٣٢٣/١٤ .

(٢) ابن حجر : الدرر الكامنة ١٢١٨/٤ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ٢٦/١١ ؛ ابن كثير : شرحه ٣٢٤/١٤ .

(٤) Makhairas : op. cit., I, No. 196. (٤)

(٥) ابن حجر : الدرر الكامنة ٩٨٢/١ .

(٦) Makhairas : op. cit. I, No. 196. (٦)

إلى بطرس متوسلاً إليه إنفاذ رسل السلطان بحجة سفير من عنده ، فاستجاب لهم الملك وبعث جيمس دى نورس مندوباً عنه وفي صحبته غرابان أحدهما لجنوة والآخر لأراجون . فلما جاء السفير القبرصى إلى مصر أمر السلطان بأخذه لمشاهدة معالم مصر والقاهرة . حتى إذا فرغ من ذلك كله تقدم « دى نورس » إلى السلطان يطلب موافقته على الاتفاقية التى أقرها سفراؤه من قبل . فأنكرها السلطان مما أحق السفير القبرصى الذى خاطبه فى جرأة بلغت حد القحة فأثارت غضب شعبان حتى لقد هم بالفنك به لولا أن سكن خاطره أحد رجالاته (١) . وراح يلح عليه فى عقد الصلح مع قبرص حتى لانت عريكته واستجاب لإلحاحه ، وبعد فترة طالت حتى بلغت عشرين يوماً وافق الملك على شروط لا تعرف مفرداتها ، وإن قيل أن الكثيرين من كبار محاليسكه كانوا غير راضين عنها . وليس فى المراجع العربية والغربية ما يشير إلى خفى هذه الشروط : غير أنه من الثابت أنه أرسل مع جيمس دى نورس سفيرين من قبله يقال إن أحدهما أسندمى الناصرى والآخر للترجم الجنوى الأصل . وبعث معهما بكثير من الهدايا والتحف . فبلغ الوفد قبرص يوم ١٤ يونيو ١٣٦٧ (= حوالى ١٣ شعبان ٥٧٦٨ هـ) لكن الملك كان متغيباً وقتئذ فى رودس . فلبثوا عشرة أيام رحلوا بعدها إليها . فاستبقى للملك رسول مصر بالسفينة وقابل جيمس دى نورس وغضب إذ رأى المسألة لا تعدو حد إرسال الرسل وأن الصلح لم يتم . وكان ظنه أنه قد أبرم واستتب السلم بين الجانبين . ورأى فى إرسال السلطان السفراء من جديد سخيرية به .

أراد بطرس — كما يظهر — أن يثبت فى روع مصر عدم اهتمامه بشأنها . فمضى يغير على بعض البلدان والثغور فى شرق البحر الأبيض المتوسط ومنها طرابلس (٢) ويصف ابن تغرى بردى (٣) قصد الفرنجة إياها تحت رايته فى مائة وثلاثين مركباً من الشوانى والقراقير والعربان والطرائد « وصحبهم صاحب قبرص . وكان نائبا أكثر عسكرها غائبين عنها . فاغتتمت الفرنجة الفرصة وخرجوا من مراكبهم

(١) هو ناصر الدين بن قرايا مترجم السلطان ، وكان مسيحى الأصل جنوبه ثم أسلم وكان اسمه قبل دخوله خدمة السلطان Luciano dell'Orto .

(٢) النویری : الأعلام ، ص ٥١٧ .

(٣) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١١ / ٣٦ .

إلى الساحل . فخرج لهم من طرابلس بقية عسكرها بجماعة من المسلمين . فقاموا بالنبال ثم اقتتلوا أشد قتال ، وتقهقر المسلمون ، ودخل المدينة طائفة من الفرنج فنهبوا بعض الأسواق . ثم إن المسلمين تلاحقوا وحصلت وقائع عدة استشهد فيها من المسلمين نحو أربعين نفرآ ، وقتل من الأفرنج نحو الألف » ، ويتفق ابن تغرى بردى والنويرى^(١) في أن « الفرنج رجعوا خائبين » ، وأن الملك عاد إلى جريدته « خائباً مقهوراً » ، وكانت تلك الوقعة يوم ١٩ سبتمبر ١٣٦٧ (= ٢٣ صفر ٧٦٩ هـ) وتتفق المصادر العربية والغربية^(٢) في وصف استبسال أهل طرابلس وكذلك فيما ارتكبه المغير من أعمال السرقة والنهب . وقد استغرقت هذه الحركة من بطرس فترة امتدت حتى الأسبوع الأول من أكتوبر حيث عاد إلى قبرص ، وربما كان السبب الذي حمله على العودة هو اقتراب عيد الميلاد ورغبة الفرنسيين الموجودين في جيشه في أن يكونوا برومة للاحتفال بهذه الذكرى الدينية . فلم يجد بداً من الرجوع حيث أمر بزج رسل السلطان في الحبس . وأصدر بياناً دعى فيه كل راغب « في نهب بلاد السلطان المصرى أن يعضى إلى قاما جوستا ، وأن يتزود لذلك بما شاء من السلاح والعدة » وكان هذا منخبطاً من الملك القبرصى .

* * *

على أن الجنوبية والبنادقة رأوا مبلغ الضرر الذى حاق بهم وبتجارانهم في الشرق من جراء مسلكت بطرس ، فبعثوا إلى البابا يشرحون له ما هم فيه من إرهاب والتمسوا منه أن يطلب من الملك القبرصى عقد الصلح صوتاً لمصالحهم « وحفاظاً على أرواح المسيحيين في أرض السلطان » فلم يجد البابا بداً من استدعاء بطرس (وكان إذ ذاك في فلورنسة) وحثه على موادة مصر . فأبدى استعدادة لإجابة مطلبه . وكان للملك شروط حملها الرسل الإيطاليين إذ جعل لنفسه حق اختيار من يمثله من القبارصة في مصر ، وله وحده حق خلعهم مما عهد إليهم . وأن يكون لهم الحكم في جميع

(١) النويرى : الأعلام ، ص ١٧٥ .

(٢) النويرى : الأعلام ص ١٧٥ . النجوم الزاهرة ١١/٣٦ ، وانظر أيضاً :

الجرائم والنزاعات التي تكون بين القبارصة الذين لا يجوز حبسهم إلا بعد مطالعة هؤلاء المندوبين بالأمر وموافقته عليه ، وأن يكون هؤلاء المندوبين - في بعض الأحيان - التقدم بطلب خفض الضرائب المستحقة على القبارصة إلى ما قد يصل إلى النصف . أما أترك آسيا الصغرى فلا يسمح لهم بدخول أرض مصر إلا تجاراً ، وحينذاك يجب أخذ العهد عليهم ألا يهاجوا بلاد الملك في أثناء رجوعهم من مصر ، وأن تطلق الحرية لجميع حجاج الأراضي المقدسة . وأخيراً فإن جميع النزاعات التي تنشأ بين القبارصة وبين رعايا السلطان يجب أن تخضع لحكم رؤساء القبارصة وإلى قيمي الجنوية والبندقية في النرق^(١) .

فبادر الجنوية والبنادقة في الحال بحمل هذه الشروط وأرسلوها بحبة وفدين من قبلهما كان على رأس الأول « كاسان سيجالا » وعلى رأس الثاني « نيكولا جستيانى » وأنفذ الملك إلى أخيه - وكان إذ ذاك نائبه في قبرص أثناء غيبته عنها - يطلب إليه إطلاق سراح أسرى السلطان ، وأن يعهد بهم إلى مندوبى جنوة والبندقية لأخذهم إلى القاهرة .

يلاحظ هذه المرة أن السلطان لم يرسل سفيراً أو سفراء من قبله ولكنه وكل إمضاء الاتفاقية إلى « السفيرين الجنوى والبندقى برآ بوعدهما الذى قطعاه فى حضرة البابا المعظم »^(٢) فى أن يعملأ جهدهما على حمل مصر على الاستجابة لحقن الدماء وإنهاء العداوة والحرب الباردة ، وما كان لأخيه الأمير إلا أن يؤمر فيجب ، على أنه يظهر أن الجنوية والبنادقة اتفقوا فيما بينهم على استبقاء الرسل النصريين حيث هم - وإن كانوا مطلقى السراح حتى يروا ما يتم بشأن الوفاة التى نهضوا من أجلها ، وأخذوا على عاتقهم تحقيق الغاية التى ينهدها الملك ويطمعون فيها لضمان انتظام تجارتهم ، ومن ثم رحلوا وحدهم يوم ٢٥ يونيو ١٣٦٨ (٧ ذو القعدة ٧٦٩ هـ) - أى بعد عام من رجوع سفارة جيمس دى نورس - فلما بلغوا القاهرة أفضوا إلى السلطان بما جاءوا من أجله « ووصلوا معه إلى اتفاق وأرسلوا إلى قبرص لإرجاع رسله »^(٣) ، وقام

Cf. Iorga : op. cit., p. 375.

Makhairas : op. cit., I, No. 223.

Makhairas : op. cit., I, No. 224.

(١)

(٢)

(٣)

السلطان من جانبه بإطلاق سراح كثير من المسيحيين ورد أملاكهم عليهم ، ولكنه آخر القسم « حتى يتم الصلح »^(١) ، وحينذاك قامت سفيتان : جنوية وبندية بالإبحار الى جمهوريتهما للتوسط في إحضار السفراء المصريين الموقنين بقبرص ، فرفض الحاكمان بنفسيهما لأداء هذه المهمة مما يدل على خطورة المهمة هذه المرة وعلى أن الجانب الفرنجى كان شديد الثقة فى أن تسكل مساعى الجمهوريتين الحميدة بالتوفيق واستكتبتهما أخو الملك فى قبرص أمام الوثوق الرسمى استلامهما « السفراء سالمين » فرحلا بهم يوم ٢٤ أغسطس (٩ محرم ٧٧٠ هـ) من فاما جوستا إلى ثغر الإسكندرية حتى إذا بلغاها أرسل يعرفان كاسان سيجالا ، ونيكولا جستناني بحجر قدومهم ، فطلب السلطان إنزال سفرائه إلى البناء ، إلا أن كاسان سيجالا قال له : « مولاي ، أن أوامر ملك قبرص تقضى ألا تنزل رسلنا حتى تعقد الصلح ويتم إطلاق من فى سجونك من النصارى حتى لا تغير رأيك كما حدث من قبل »^(٢) فغضب السلطان غضباً شديداً وكبر عليه أن يكون عمله وقوله موضع شك ، كما عظم عليه أن يحدته « هذا الملعج الخنزير » بمثل هذا الأسلوب دون مراعاة لمقامه ، وقام منكلى بغا الشمسى فصفع كاسان على وجهه وسبه وجذبه من لحيته واتهمه بغش السلطان والسخرية به ، فأنكر كاسان هذا القول ، ويصف لنا ماخيراس^(٣) — ولكن فى اضطراب فى ذكر الأحداث — ما جرى إذ ذاك من وجود فريقين أحدهما يشجع السلطان على اتخاذ موقف صلب إزاء هذه السفارة وثانيهما يحاول تهدئته ومعالجة الموقف فى شىء من الهدوء . وتردد السلطان بين الاستجابة والرفض وأخيراً عفا عن السفير الجنوى ورده إلى قبرص حيث عاد باثنين من الرقيق المسلم هما « آخر من بقى من المسلمين بها » وأرسل بطرس معهم خطاباً إلى السلطان وردت ترجمته فى ماخيراس^(٤) جاء فيه « إلى صديقنا العزيز سلطان مصر : يبعث إليكم صديقك ملك قبرص تحياته . وأحب أن تعلم أننى تأملت منك أشد الألم . . . فقد طلبت الصلح واستجبت له بناء على التماس الجنوية والبنادقة والكتلان ، إذ ألحوا على من أجله ، فلما جاءتك

Op. cit., loc. cit.

(١)

Op. cit., loc. cit.

(٢)

Ibid., I, Nos. 225-226.

(٣)

Ibid., I, No. 230.

(٤)

رسلى ضرب البعض منهم في حضرتك ، وحاولت قتل الآخرين ، فاحتملت هذا كله ؛ وإنك لتطلب السلم لحظة ثم يبدو لك أن تنصرف عنه وتماطل فيه ... وأقسم لك كمسيحي أن حكام العرب قد أصدروا أوامره لعسكرهم بالنأهب لحملة ضخمة لمهاجمتك . غير أن البنادقة خدعوني فأفهمت الحـكام أن السلم قد استتب بيني وبينك فقعدها بعد النهوض وآمنت بما قلته كملك فأطلقت سراح الأسرى المسلمين وبعثتهم إليكم بينما لا تزال أنت مستبقياً النصارى في حبسك » ثم أخذ يتهدهده وأخبره أنه لن يخط إليه بعد ذلك حرفاً . ووضح من هذا الكتاب — إن صدق وروده على هذه الصورة — أن الملك يهدد من طرف خفي بتعويق تجارة مصر نظراً لاشتراك البنادقة والجنوية والكتلان معه في إحساسه وإن كان يلقي باللأمة على البنادقة في أنهم — بما نقلوه إليه من رغبة السلطان الصلح — قد خدعوه إذ ثنى الغرب عن إفادة حملة ضد مصر ، ولكنه يهدده في الوقت ذاته بأن الغرب لا زال مستعداً لمحاربته إن لم يف بما وعد ، وأنه لمن المؤسف أن المراجع العربية تخلو خلواً تاماً من الإشارة إلى مثل هذا الخطاب ، بل وإلى الأحداث التي جرت في تلك الفترة بالذات .

على أن الأحداث في قبرص عوقت الملك فقد تحركت نفوس أمرائه ضده ، وراحوا يتهمون به بكل موبقة ، بل إن زوجته ذاتها كرهت منه أسلوبه في خطاياه ، فاتفقت الآراء على اتخاذ خطوة فعالة ، كان أيسرها شكواه إلى البابا ، وبلغ التذمر منه غايته حتى تأمروا على قتله فاغتالوه ، وكان بمن اغتاله أخواه ، وأجلسوا على العرش ابنه الصبي بطرس الثاني وجعلوا أخاه وصياً عليه ، وكان من أشد من حزن على قتله فيليب دي ميزير الذي جمل « خبزه دمعه Panem Lacrimarum » ، والظاهر أن الوصى أراد أن يجعل من وصايته عهداً بالسير على خطة المقتول من حيث معاداة مصر ، فبعث بواحد من رجال الأسطول اسمه « جان دي مورف » في أربع سفن حربية إلى النغر السكندري لكن المسئولين بها لم يسمحوا له بالدخول ، فلم يكن منه إلا أن وثب على مركب لجماعة من المغاربة ثم راح يهاجم صيداء وبيروت وجبلة واللاذقية ، ثم عاد إلى فاما جوستا يوم ٢٢ يوليو ١٣٦٩ (١٦ ذو الحجة ٧٧٠ هـ) ، وكان لهذا الهجوم المباغت أثره في تقوية الروح المعنوية في الغرب فأخذ يحمشد قواته من الغامرين وأصحاب المطامع الشخصية لضرب القوة الإسلامية في مصر ، وضافت

البندقية ذراعاً بمسلك السلطان في عدم رضائه بالصلح ، فنهضت هي هذه المرة ودعت جنوة لإرسال مندوبين عنهما إلى البابا الذي جاءته وفادة من الجمهوريتين التجاريتين وهونى مدينة «فيتيرب» واتفق الجميع حينذاك على عدم التجارة مع مصر المملوكية ، وتأكد هذا في اتفاقية عقدت يوم ٢٨ يوليو تعهد فيها كل من البنادقة والجنوية بإرسال بعض السفن والأغربة إلى رودس للاتفاق مع جماعة الاسبتارية — المرحبين بكل دعوة لقتال مصر — ومع القائم بالوصايا على الملك القبرصى ، واتفقوا على إرسال قوة إلى مصر تطلب من سلطانها إعادة جميع من في أسره من الفرنجة فإن أبى ذلك عليهم هددوه بقطع الطريق على جميع السفن القاصدة الإسكندرية ، مسيحية أم إسلامية ، وكان معنى هذا الحصار الاقتصادى وما يتبعه من ضعف قوة مصر وركوعها أمام الغرب .

وإذا كان ماخiras هو المصدر لهذه الأخبار فقد أورد ماجرى من هذه الجماعة من محبتها وإرسالها رسالة إلى السلطان ، قذفته إليه بسهم تهدده فيه بالحرب إن لم يستجب لداعى العقل والصالح العام ، وختمته بقولها « إنك مملوك من أصل وضيع » (١) ، ويذهب ماخiras إلى أن السلطان خاف هو وأمرأوه فأطلق سراح اثنين من تجار النصارى وأرسلهما إلى الوصى بقبرص بكتاب يعتب فيه على مسلك الدين جاءوا من قبله ، فمدد القوم تحولا طيباً وخطوة إيجابية في سبيل الصلح ، ورحب الوصى بهذه الفرصة إذ رأى فيها تهيئةً لمكاته في عيون الأهالى وتجار الغرب ، ومنع السفن من المضى إلى الساحل الشمالى بقصد نهبه ، وأخذ السلطان يترب عوده للتاجرين اللذين فك قيديهما ، فأرسل اثنين آخرين أحدهما جنوى والآخر بندقى (٢) ، فاطمأنت قلوب تجار قبرص ، ورحبت جنوة والبندقية بهذه الخطوة الجديدة من جانب السلطان وأرسلتا إلى البابا والدوج للسكون ، وسارت الأمور كما يشتهى جميع الأطراف ، وخرجت ثمانى سفن ، واحدة عليها التجار ولأربعة الذين بعثهم السلطان من قبل ، واثنان جنويان وعليهما ولتر داريا ، ومثلهما بندقيان وعليهما بطرس جستينيانى واثنان اسبتاريان وعليهما الأخ دى فيرن وغرابان قبرصيان عليهما سيتفن فاردن وجون بدوان

Dawkins, op. cit., No. 294, note I, d'après Bustron.

Cf. Iorga : Philippe de Mezières, p. 401.

(١)

(٢)

الكبير ، كما أرسلوا مع هذه السفن التجار المسيحيين الأربعة الذين كان السلطان قد بعث بهم من قبل على دفتين ، وأرسل الوصى كتاباً رقيق اللهجة إلى السلطان يؤكد له فيه أن كل ما يبرمه رسوله جون بدوان مقبول لديه وغير مراجع فيه ، وبلغت هذه السفن الإسكندرية يوم ٦ أغسطس ١٣٧٠ (= ١٢ المحرم ٧٧٢ هـ) على قول ويوم ٨ أغسطس على قول آخر^(١) ، وبعد لأي استجاب السلطان للصلح وأقسم على القرآن باحترامه كما أقسم الآخرون على الإنجيل ، وأرسل بعض كبار أمرائه إلى قبرص حيث رحب بهم الوصى ودعى الملك الشاب للقائهم ، وأقسم الجميع كل على كتابه المقدس ، وبذلك ختمت صفحة من النزاع الذي بدأه بطرس اللونياني ليعود في القرن التالي ويستكمل باحتلال مصر لقبرص .

من مبدئى

Makhairas, op. cit., No. 303 ; Dawkins, op. cit., II, 303, note (١)
2. d'après Strambaldi.